معهد الدين القيم

بأشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس الأربعون النووية

شرح الشيخ رياض عصنوني

حفظه الله

الدرس رقم (11)

التاريخ: السبت 1440/05/20 هـ

26/يناير/2019 م

الدرس الحادي عشر من شرح "الأربعين النووية"

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد؛

فدرسنا الليلة إن شاء الله تعالى هو **الدرس الحادي عشر**، من دروس شرح الأربعين النووية، للحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي –رحمه الله-.

الحديث الثالث والعشرون

قال –رحمه الله-:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الأَشْعَرِيِّ –رَضِيَ الله عَنْهُ- قال: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حَجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» رَوَاهُ مُسْلِم.

«الطُّهُورُ» بضم الطاء؛ اسم للفعل وهو التطهر، وبفتحها اسم لما يُتطهر به، سواء كان ماءً أو غيره.

والمراد في الحديث هنا «الطُّهُورُ» أي التطهر، لكن السؤال هو: التطهر من ماذا؟ كما تعلمون -حفظكم الله- الطهارة تنقسم إلى قسمين:

- **طهارة حسية.**
- **طهارة معنوية.**

الطهارة الحسية: **هي ارتفاع الحدث وما في معناه وزوال النجس.**

أما الطهارة المعنوية: **فهي الطهارة من الذنوب والمعاصي والسيئات**[1].

قالت طائفة من العلماء: الطهور هنا حسيٌّ، يعني المراد بالحديث «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ» الطهور الحسي، والمراد بالإيمان الصلاة؛ لأن الصلاة جاء وصفها في الشرع بأنها إيمان، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]، إيمانكم: أي صلاتكم، فيكون

[1] الأولى تعريفها بأنها الطهارة من الشرك والبدع والمعاصي كما سيأتي.

الطهور شطر الإيمان؛ لأن الطهارة شرط في صحة الصلاة، والشطر معناه النصف أو الجزء الذي هو دون عن النصف.

وقالت طائفة أخرى من العلماء: الطهور هنا طهورٌ معنوي، وكما قلنا الطهور المعنوي هو التطهر من النجاسات المعنوية التي أعظمها الشرك، والتي منها أيضًا البدع والمعاصي والذنوب، وهذا القول مستند إلى أحد التفسيرين لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:4]، وعلى هذا فيكون الطهور هنا الطهارة المعنوية، والإيمان المُراد به الإيمان بالمعنى يعني الشرعي، لماذا؟ لأن الإيمان قسمان:

- فعلٌ.
- ترك.

والطهور المعنوي هو الترك، يعني تترك البدع وتترك المعاصي وتترك الشرك؛ لهذا كان الطهور شطر الإيمان؛ لأن الطهور بهذا المعنى أي ترك البدع والمعاصي والشرك يكون نصف الإيمان والنصف الآخر أفعالٌ العبد مأمورٌ بفعلها، هذا هو القول الثاني في المسألة.

والمُراد والصحيح -والله تعالى أعلم- وهو قول ثالث في المسألة وهو قول طائفة من أهل العلم أن المراد بالطهور هنا القسمان معًا، الطهور الحسي والمعنوي، التطهر الحسي والتطهر المعنوي جمعًا بين الأدلة؛ ولأن كلا المعنيين مراد.

ثم قال ﷺ: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ»

«الْحَمْدُ»: هو وصف المحمود بالكمال محبةً وتعظيمًا، ووصف الإنسان لله تبارك وتعالى بأنواع المحامد محبةً وتعظيمًا له سبحانه يملأ ميزانه يوم القيامة، وهذا من سعة رحمة الله تبارك وتعالى، عندما تحمد الله تبارك وتعالى فتصفه بأنواع المحامد وتصفه بأنواع الكمالات التي هو أهل لها –سبحانه وتعالى- فإن هذا يملأ ميزانك يوم القيامة.

ثم قال: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآن، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»:

«وَسُبْحَانَ اللَّهِ» معناها: تنزيه الله –تبارك وتعالى- عن العيوب والنقائص، وأعظم العيوب والنقائص التي من واجبنا تنزيه الله –تبارك وتعالى- عنها هو اتخاذ الشريك؛ فأصبح عندنا هنا نفيٌ وإثبات، سبحان الله تنزيه لله –تبارك وتعالى- ونفي للعيوب والنقائص عنه تبارك وتعالى.

«الْحَمْدُ»: كما مر معنا إثبات أنواع الكمالات لله تبارك وتعالى، وإثبات صفات الكمال لله –تبارك وتعالى- فأصبح عندنا هنا نفي وإثبات، فعندما يسبح الإنسان فهو ينزه الله تبارك وتعالى عن العيوب والنقائص، وأعظم هذه العيوب والنقائص هو اتخاذ الشريك، ومماثلة الخلق له –سبحانه وتعالى- في أسمائه وصفاته، وعندما يحمده الإنسان فهو يصفه بصفات الكمال التي أثبتها الله –تبارك وتعالى- لنفسه سبحانه وتعالى.

فإذا قال المرء هاتين الكلمتين مستحضرًا لهذا المعنى وبنية خالصة فهذا يملأ ما بين السماء والأرض مع عِظَم المسافة التي بينهما إلا أنها تمتلئ بقوله هاتين الكلمتين؛ لأن حقيقتهما تنزيه لله -تبارك وتعالى- وإثبات لصفات الكمال له تبارك وتعالى.

لكن كما ذكرنا ننبه إلى أن المراد ليس قولهم فقط، بل المراد قولهم مع العمل بما يقتضيانه، فلا يصلح أن يأتي مشرك يشرك بالله تبارك وتعالى في عبادته ثم يقول سبحان الله ويريد أن تملأ هذه الكلمة ما بين السماء والأرض، لا، المراد هو العمل بمقتضى هذه الكلمات، وقولها باللسان مع حضور للقلب.

ثم قال ﷺ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ»

المصلي الذي يحافظ على صلاته في وقتها ويؤديها بالصفة التي أداها بها النبي -ﷺ- هذا يجعل الله له نورًا في قلبه وفي وجهه، ويضيء له طريقه في الدنيا، وكذلك يجعل له نورًا في قلبه، ويجعل له نورًا يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45].

الصلاة تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر وتضيء له الطريق، وتجعله يعمل على نور من الله تبارك وتعالى، إذا أداها كما أداها النبي –ﷺ- وأداها في وقتها، مع الحفاظ على أركانها وواجباتها وشروطها؛ فإنها –بإذن الله- تكون له نورًا في الدنيا والآخرة.

ثم قال ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»

أي برهانٌ على صحة إيمان المتصدق به؛ لأنه لا يتصدق بالمال إلا من في قلبه إيمان، لماذا؟ لأن النفس البشرية تحب المال، وهي شحيحة إذا أراد الإنسان أن يتصدق، وإذا أراد الإنسان أن يضيع هذا المال، فإن النفس تأمر الإنسان بالبخل، هذا في الغالب، لكن المؤمن الصادق لحبه لفعل الخير، لحبه أن يحبه الله تبارك وتعالى، ماذا يفعل؟ يتصدق، فيكون هذا برهانًا على صدق إيمانه، بخلاف المنافق، المنافقون لا يتصدقون، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:54]، إذا حصل وأنفقوا فهم لا ينفقوا إلا رئاء الناس، وأيضًا إلا وهم كارهون.

ثم قال ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»

الصبر كما تعلمون –بارك الله فيكم- ثلاثة أقسام:

- صبرٌ على طاعة الله حتى تُؤدى.
- صبرٌ عن معصية الله حتى تُجتنب.
- صبرٌ على أقدار الله تعالى.

فالمؤمن الصادق يصبر حتى يؤدي الطاعة على أحسن وجه، كما أمره بذلك الله تبارك وتعالى، ولابد أن يتحمل ذلك، وكذلك يصبر على ترك المعصية، المعصية قد تحبها النفس وتهواها، لكن المؤمن الصادق يصبر ويحمل نفسه على ترك هذه المعصية وعلى ترك هذا الذنب، لماذا؟ لأنه يريد رضا الله تبارك وتعالى.

وكذلك أقدار الله التي لا تلائم ما يحبه المرء؛ فإنه لا بد عليه من أن يصبر عليها، المرء قد يُبتلى بفقد من يُحب، ويُبتلى أيضًا بأنواع الابتلاءات، فلا بد له أن يصبر، ولا بد أن يحمل نفسه على ألا تتسخط على أقدار الله تبارك وتعالى، المؤمن الصادق لا يتسخط لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بجوارحه، إن كره ذلك بقلبه فإنه يكره ذلك ولكنه لا يتسخط، ولا يفعل إلا ما يرضي الله تبارك وتعالى.

وقد يرتقي المؤمن من هذه الدرجة، درجة الصبر، إلى درجة الرضا بقضاء الله -تبارك وتعالى- مع أنه تصيبه المصيبة، لكنه يكون راضيًا بقضاء الله -تبارك وتعالى-، وهذه المرتبة فوق مرتبة الصبر؛ ولذلك كان الصبر ضياء، الضياء فيه نورٌ مع الحرارة، الصبر لمشقته على النفس، ولمعاناة النفس جراء هذا الصبر؛ فإن النبي ﷺ شبهه بالضياء.

ثم قال ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حَجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»

القرآن إذا تلوته حق تلاوته وعملت به، فأحللت حلاله وحرّمت حرامه؛ كان حُجّةً لك يوم القيامة، وكذلك إذا لم تعمل به، فلا لحلاله أحللت ولا لحرامه تركت، لكن به تأكّلت وكان همك منه أخذ الأجرة على تلاوته، كان حُجّة عليك، وكان حفظك له وتلاوتك له وبالًا عليك وحُجةّ عليك، والله المستعان، الآن نجد كثيرًا ممن يُعدّون من حفظة كتاب الله إلا أنهم من أواخر من يمتثل ما فيه من أوامر، وتجدهم يخالفون صريح القرآن، ومع ذلك يدّعون أنهم من حملة كتاب الله، والله المستعان.

ثم قال النبي ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»

أي: كل الناس يخرج مبكرًا في الصباح، وهذا هو الغدو، وهذا الغادي يبيع نفسه، أي: يكلفها بالعمل، وهذا الذي يبيع نفسه إذا قام بأنواع الطاعات وترك المحرمات فهذا قد أعتق نفسه، وعمل للآخرة، أما إن أعطى نفسه الحرية وتركها تعمل ما يحلو لها، وفعل أنواع المحرمات وترك الواجبات، وكان من العاصين، فهذا-كما قال النبي ﷺ- أوبق نفسه، هذا لم يعتق نفسه، فالمسلم الذي يريد أن يعتق نفسه يُحاول و يسعى جاهدًا إلى فعل الطاعات، وإلى فعل ما أمر الله تبارك وتعالى به، ويسعى أيضًا جاهدًا ويحمل نفسه على ترك الذنوب والمعاصي؛ حتى يسعد في الدارين، يسعد في الدنيا ويسعد في الآخرة.

الحديث الرابع والعشرون

ثم قال النووي رحمه الله في الحديث الذي بعده: عنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيّ رِضِيَ الله عَنْه، عَنِ النَّبِيّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّه عَزَّوَجَلَّ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُه فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا نَقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِم.

هذا الحديث حديثٌ عظيم فيه بيان عظمة الله وسعة رحمته وفضله –سبحانه وتعالى- على خلقه، وهو حديث قدسي؛ لأن النبي ﷺ يرويه عن الله تعالى، فإذا وجدت حديثًا فيه هذه العبارة –عبارة- فيما يرويه عن ربه، أو فيه قال النبي ﷺ قال الله تعالى: كذا، أو عبارة تدل على إضافة الكلام إلى الله -تبارك وتعالى- فاعلم أن الحديث قدسي.

وسمي قدسيا نسبةً إلى القُدُس، وهي نسبة تدل على التنزيه والتعظيم والتطهير، الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله تبارك وتعالى، ويرويه عن الله تبارك وتعالى النبي ﷺ، بخلاف الحديث النبوي، فهو وإن كان معناه من الله إلا أن لفظه من النبي ﷺ.

في هذا الحديث كرر الله تبارك وتعالى لفظ يا عبادي في كل فقرة من الفقرات، وهذا تلطفٌ منه سبحانه معنا، ومن رأفته بنا.

قوله تبارك وتعالى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»

«الظُّلْمَ» هو وضع الشيء في غير موضعه، وقد حرّمه –سبحانه وتعالى- على نفسه، ولله -تبارك وتعالى- أن يُحرّم ما شاء على نفسه، وله أن يُوجب ما شاء على نفسه، كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:12]، وله سبحانه وتعالى أن يُحق ما شاء على نفسه، كما جاء في الحديث: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

ومعنى قوله: أنه حرّم الظلم على نفسه أي: أنه منعها من الظلم مع قدرته عليه، وهذا جاء أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:44]، وقال أيضًا سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر:31]، ونفي الظلم عن الله –تبارك وتعالى- يتضمن وصفه بكمال العدل.

وقوله تعالى: «وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»

فالله –تبارك وتعالى- كما حرّم الظلم على نفسه، حرمه على عباده أي بينهم، وأمرهم بالعدل، ومرّ معنا في الأحاديث السابقة أن الظلم –بالنسبة للعباد- ينقسم إلى أقسام:

- **ظلمٌ متعلقٌ بحق الله تعالى وهو الشرك**، وهذا هو أظلم الظلم.
- **ظلم الإنسان لنفسه بأن يرتكب أنواع المحرمات والمعاصي**، ويترك ما أوجب الله –تبارك وتعالى- عليه، وهذا يعرضه لعذاب الله تبارك وتعالى.
- القسم الثالث: **هو ظلم الغير**، ويكون بأنواع التعدي والتسلط على الغير أو بمنع الغير من حقوقهم، وهذا كله مرّ معنا.

المهم عندنا هنا أن الظلم بأنواعه الثلاثة محرم، حرّمه الله تبارك وتعالى علينا، والله سبحانه وتعالى يتوعد الظالمين بالهلاك، والإنسان ينبغي أن يضع نصب عينه أن الظالم مهما تمادى في ظلمه، فإنه سيلاقي عاقبة ظلمه عاجلًا أم آجلًا، والمظلوم له دعوةٌ مستجابة، كما جاء في الحديث: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ

فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» يعني مهما كان المظلوم سواء كان مسلمًا أو كافرًا، فدعوته مستجابة وليس بينها وبين الله حجاب، فالإنسان أو المسلم الكيّس الفَطِن يخاف من الظلم؛ لأن عاقبته وخيمة، ويحاول جاهدًا الابتعاد عنه، وكثيرًا ما يكون الظلم من المرء للذين هم حوله، لا يبحث الإنسان بعيدًا، كثيرًا ما يجد الإنسان نفسه لو فتّش يجد نفسه ظالمًا لمن هم حوله، قد يجد نفسه ظالمًا لوالديه، وقد يجد نفسه ظالمًا لزوجته، وقد يجد نفسه ظالمًا لجيرانه، أو ظالمًا للعمال الذين هم تحت أمره في عمله، أو غير ذلك، يعني لا تبحث بعيدًا قد تجد نفسك ظالمًا لمن هو أقرب منك وأنت لا تشعر، كما قلنا الظلم: لو منعته حقه فقط ظلمته.

ثم قال سبحانه وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»

«اسْتَهْدُونِي» أي: اطلبوا مني الهداية، والهداية نوعان:

- هداية البيان والإرشاد.
- هداية التوفيق والقبول.

هداية البيان والإرشاد: هذه تحصل لكل أحد، وكل أحدٍ يستطيعها [2]، وهي بيان الحق وإرشاد الناس إليه، وقد بيّن الله تبارك وتعالى أن الحق وأرشدنا إليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123].

والقسم الثاني من الهداية: هي هداية التوفيق والقبول: وهذه خاصة بالله تبارك وتعالى لا يستطيعها سواه؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابعه –سبحانه- يُقلبها كيف يشاء، وهذا النوع من الهداية لا يجوز طلبه من غير الله تبارك وتعالى، قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:272]، وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:56]، قالها للنبي ﷺ لما حاول أن يُميت عمه أبا طالب على الإسلام، فكان يقول له عندما حضرته الوفاة: «يا عَمِّ

[2] الأولى قول: هذه يستطيعها كل أحد.

قُلْ لا إِلهَ إِلاّ اللهَ كَلِمَةَ أُحَاجُ لَكَ بها عِنْدَ اللهِ»، لكن الله لم يوفق عمه للموت على هذه الكلمة، وقال عند موته: «بَلْ عَلَى مِلَّة عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»؛ فمات على الكفر وأنزل الله هذه الآية، وفيها بيان أن النبي ﷺ لا يملك هذا النوع من الهداية، بخلاف النوع الأول فقد أثبته الله له تبارك وتعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52].

المهم أن قوله سبحانه: «كُلُّكُمْ ضَالٌّ»؛ لأن الله تبارك خلقنا جُهّالًا لا نعلم شيئًا لا نعلم طريق الحق، ومن لا يعلم طريق الحق فهو ضال، لا بد عليه أن يتعلم هذه الطريق حتى يسلكها، فإذا هداه تبارك وتعالى وبيّن له طريق الحق، ثم وفّقه –تبارك وتعالى- لسلوك هذا الطريق، فقد هداه الله سبحانه وتعالى. والهداية التي يطلب منها -سبحانه وتعالى- أن نسأله إياها هنا في هذا الحديث هي نوعا الهداية، النوعان معًا؛ فلا بد للمرء من معرفة طريق الحق، ولا بد له أيضًا من التوفيق؛ حتى يسلك هذا الطريق، فمتى اختلفت إحدى الهدايتين عن الإنسان ضل؛ لذا تجد الكثيرين لا يهتدون، أو لا يتوفقون إلى معرفة طريق الحق، وإن وُفِّقوا إلى معرفته فهم لا يتوفقون لسلوكه، ومن عرف الحق ووفِّق لاتباعه فليحمد الله، لماذا؟ لأنه في نعمةٍ عظيمةٍ لا يعرف مداها إلا من حُرمها.

ثم قال سبحانه وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ»

هذا فيه بيان أن الرزق من الله –سبحانه وتعالى- فهو المُنعم المُتفضل على عباده، والمرء ينبغي له أن يستحضر دائمًا هذا، وأمّا الأسباب التي يتخذها الإنسان في طلب الرزق هي مجرد أسباب، وليست هذه التي ترزق، الرازق الحقيقي هو الله –تبارك وتعالى-، إذا اعتقد الإنسان هذا فسيكون دافعًا كبيرًا له لكي يتخذ الأسباب الشرعية في طلب الرزق، أو الأسباب الحلال في طلب الرزق، كثيرٌ من الناس يظن أن هذه الأمور هي التي ترزق، وتجده يفعل الكثير من المحرمات للحصول على المال، لكن لو استحضر الإنسان أن كل هذا الرزق هو توفيق من الله، وهو من الله تبارك وتعالى، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعطيك هذه الأمور، وأن كل هذه الأمور التي يتخذها الإنسان كأسباب هي أسبابٌ للحصول على هذا الرزق فهذا سيكون دافعًا كبيرًا للمرء حتى يُجمل في الطلب كما جاء في الحديث.

ثم قال تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُه فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»

«عَارٍ» أي عارٍ من الثياب، والله سبحانه وتعالى هو الذي كسانا ورزقنا هذه الكسوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف:26]، وفي هاتين الجملتين، الجملة السابقة وهذه من الحديث بيان لشدة افتقار العباد إلى الله، وأنه سبحانه هو الذي يكسوهم، وهو الذي يرزقهم، فالعباد فقراء إلى الله –سبحانه وتعالى- ولولا الله سبحانه وتعالى لما أكلنا، ولما لبسنا، وكل هذا من فضل الله تبارك وتعالى علينا؛ فلا بد من شكر هذه النعم والعمل بالصالحات، واجتناب المحرمات؛ حتى يكون الإنسان شاكرًا لنعم الله -تبارك وتعالى- التي هو فيها.

ثم قال سبحانه وتعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمُ الَّذِينَ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».

«تُخْطِئُونَ» تعملون السيئات، سواء كان الفعل هذه السيئات بفعل المحرمات أو بترك الواجبات، فهذه طبيعة بني آدم أنه يخطئ، كما قال النبي ﷺ: «كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابونَ»، والمرء ما دام يخطئ فهو بحاجة إلى الاستغفار والتوبة إلى الله؛ لذلك قال تعالى: «فَاسْتَغْفِرُونِي» أي: فاطلبوا منّي المغفرة، وجميع الذنوب يغفرها الله تبارك وتعالى بالتوبة والاستغفار، حتى الشرك بالله يغفره الله بالتوبة، وهذه نعمة عظيمة علينا، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53].

فالإنسان لا ييأس من رحمة الله، ولا يقل أنا أسرفت على نفسي، وقضيت كل عمري في المعاصي والآثام فكيف يغفر الله لي؟ لا، هذا من تلبيس الشيطان، الله -تبارك وتعالى- وعدنا بالمغفرة، بشرط أن نتوب إليه سبحانه وتعالى، ووعدنا أيضًا أن يبدل سيئاتنا حسنات، المهم أن الإنسان يتوب وينيب إلى الله -تبارك وتعالى- ويقلع عن هذه الذنوب التي هو فيها.

ثم قال تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»

من كفر وأشرك وعصى الله -تبارك وتعالى- فلن يضر الله ذلك، المتضرر الوحيد هو هذا العاصي، الله –سبحانه وتعالى- ليس بحاجة إلى عبادة الناس، وإلى طاعاتهم، مهما أطعنا الله تبارك وتعالى، فهذا لا ينفع الله، بل ينفعنا نحن، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:176].

ثم قال سبحانه في الحديث: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»

هذا كالذي قبله، تقوى العباد وطاعاتهم لا تنفع الله –تبارك وتعالى- بل تنفعنا نحن، عبادَ الله نحن محتاجون إلى هذه الأعمال الصالحة، فهي لا تنفع الله ولا تزيد في ملكه سبحانه وتعالى شيئًا، إن نحن أطعنا الله، فسيجازينا على هذه الأعمال، وتكون نافعةً لنا، أما هو سبحانه فلا تزيد في ملكه شيئًا.

ثم قال سبحانه وتعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا نَقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»

«صَعِيدٍ» هو: ما تصعّد على وجه الأرض، ومعناه: أنكم أيها الناس كلكم لو اجتمعتم في مكانٍ واحد، وكل واحد سأل الله –تبارك وتعالى- أمرًا وأعطاه سبحانه سؤله لم ينقص ذلك من ملك الله، ومثّل لذلك بقوله: إِلَّا كَمَا نَقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» المخيط هي الإبرة الحديدية، ومعلوم أن هذا المخيط أو الإبرة إذا أُدخلت في البحر لا تنقص من البحر شيئًا.

ثم في الأخير قال: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا»

أي أن الله –تعالى- يُحصي لنا أعمالنا وهي مدونة في صحائف أعمالنا وفيها كل شيء نعمله.

قال: «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»

أي أن الله –تبارك وتعالى- يُحاسبنا على أعمالنا، ما هو في صحائفنا، يُحاسبنا ويجزينا عليه، السعيد

من أعدّ لذلك اليوم العُدّة وعمل بطاعة الله –تبارك وتعالى- والشقي من منّى نفسه، وعمل بهواه، وترك طاعة الله سبحانه وتعالى، وملأ صحيفته بالسيئات والذنوب، ثم يوم القيامة كما قال الله تعالى: «لَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

الحديث الخامس والعشرون

ثم قال النووي -رحمه الله- في الحديث الذي بعده، **قال: عنْ أَبِي ذَرٍّ رِضِيَ الله عَنْه، «أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ –ﷺ- قَالُوا لِلنَّبِيِّ –ﷺ-: يَا رَسُولَ اللهِ**، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ :أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». **رَوَاهُ الْإِمَام مُسْلِم.**

في هذا الحديث يتبّين لنا حرص الصحابة –رضوان الله تبارك وتعالى عليهم- على الخير، وقد اشتكى فقراء الصحابة اشتكوا إلى النبي -ﷺ- أن الأغنياء منهم ذهبوا بالأجر، فقالوا: إنهم يصلون مثلما يصلون، ويصومون مثلما يصومون، وزيادة على ذلك يتصدقون بفضول أموالهم، وهؤلاء الفقراء لا مال لهم؛ ليتصدقوا به، فأرشدهم النبي –ﷺ- إلى أن معنى الصدقة أوسع مما يتصورون، وبيّن لهم أشياء يعني هي من الصدقات.

فقال لهم: «إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً» فإذا قال المسلم سبحان الله كانت له صدقة، «وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً» إذا كبّر الإنسان وقال: الله أكبر، كانت له صدقة، وإذا حمد الله، «كُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً» إذا قال الحمد لله كانت له صدقة، «وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً» أي: إذا قال الإنسان لا إله إلا الله كانت له صدقة.

وهذا القسم من الأعمال نفعه قاصرٌ على صاحبه، بيّن لهم أيضًا أعمال متعدية إلى الغير، لهم بها أجرٌ وصدقة.

فقال لهم: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ»

إذا رأى الواحد منّا منكرًا ونهى صاحبه عنه وأنكره فكانت له بذلك صدقة، وإذا أمر شخصًا بالمعروف كانت له صدقة أيضًا.

ثم قال: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»

أي أن الواحد منّا إذا جامع زوجته كانت له بذلك صدقة، وهذا أيضًا أشكل على بعض الصحابة فسألوا النبي -ﷺ- عن ذلك فقال لهم: كما أن المرء إذا وضع شهوته في الحرام كان له وزرٌ على ذلك، فكذلك عندما يضعها في الحلال يكون له بذلك الأجر.

وبعض هذه الأمور فيها تفصيل كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متى يجوز؟ ومتى لا يجوز؟ وكذلك هذا الأمر، أمر الجِماع متى يكون واجبًا على الإنسان؟ ومتى يكون مستحبًا؟ لكن ليس هذا موضع بسطها، ولعلنا نتركها إلى مواضع أخرى.

هذا ما يتعلق بأحاديث اليوم، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت

أستغفرك وأتوب إليك